الناحية الاجتماعية

أرانى مضطراً للكتابة عن الحياة الاجتماعية ، مُلِمّاً بها إلماماً مُجْمَلاً وإن أغفلها المنهج – لتفسير ما قد يكون لها من الأثر الأدبى الذى يبدو فى الشعر والنثر.

مقومات المجتمع :

وتعنى بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة أو الجماعة من الأسباب والصلات ، التى تكونها الحياة الاقتصادية ، والسياسية والدينية والعلمية ، والأدبية ، تلك الأمور باقترانها ترسم للأمة صورتها الاجتماعية ومنهجها الحيوى الذى يكسبها التقدم والسعادة ، أو يكتب لها الشقاء والانحطاط .

فالدين القويم ، والعلم الصحيح ، والخلق الكريم ، والعدالة الشاملة والحكومة الحازمة الرشيدة ، والعيش المنتظم المارق كل تلك إذا توافرت لشعب هيأت له من سعادة الحياة واطرادها ورقيها ما لا يحظى به شعب مغلوب على أمره ، يشقى بجهالة عمياء ، أو انحلال خلقى أو يدين لحكومة ظالمة خرقاء ، أو يحيا ناضب المورد ، سقيم العقيدة مفكك الأوصال ، ذلك ما نجد أمثلته فى التاريخ القديم والحديث .

تحليل النفسية العربية:

نلاحظ أن الشعب العربى فى الجاهلية كان يحيا حياة منعزلة إلى درجة كبيرة ، فبقى لذلك محافظاً على ميزته القديمة لا يكاد يغيرها ، وصار لذلك أقرب الشعوب السامية شبهاً بأصله الأول فى تكوينه الجسمى والنفسى جميعاً ، سمرة الصحراء ونحول الجسم وتوسط القوام ، وسعة العين ، وحدة الذكاء ، وصدق الحس وسرعة الغضب ، وضيق الخيال ، ومادية الحياة ، وقصر النفس العلمى والفكرى

يعيش من عقله فى وحدات فكرية هى خطرات طارئة مفككة ، فصار شعره لذلك أبياتاً فذة ، أو مقطوعات قصيرة أو قصائد ليست ذات وحدة موضوعية أو منطقية تلمس فى شعره اضطراب حياته ، وتبصر حياته ونفسه مصورة فى آثاره التى كأنها خياله تحكى عيشه .

ولا عجب ، فالأدب صورة الحياة الفردية والاجتماعية وربما كان ضيق الخيال ، وضعف المنطق ، ودنو المثل الأعلى للعرب مانعاً من إنشاء الملاحم القصصية التى تحتاج إلى تاريخ محفوظ ، وخيال بارع ، وتنسيق قويم ، وابتكار بديع كما نلاحظ أن الشعب العربى معروف بالمنافسة الشديدة بين قبائله وكان من نتائجها تلك الغارات المشهورة التى كانت ولا شك نتيجة لهذا الاحتكاك والتزاحم على الموارد القليلة فى البادية ، ولما رُكب فى طبائع البدو فى معظم الأحيان إلى درجة من الاندفاع والتهور ، واتجهت فى النهاية إلى تقرير مبدأ الانتصار للعشير ظالماً كان أو مظلوماً ، ذلك المبدأ الذى هديه الإسلام ورده إلى فضيلة الاعتدال .

وكانت هذه البطولة إحدى الدعائم التى قام عليها الاجتماع العربى فى البادية ، وكانت سبباً فيما اتصل بأسماء كثير من أبطال العرب ومغاويرهم من مناقب الفخار والمجد التى تغنى بها الشعراء ، واتخذت مكانها بين الآداب الحماسية القديمة التى بقى صداها إلى الأجيال المختلفة ، وشداً على أوتارها غزاة المسلمين فى زحوفهم وقائعهم المشهورة .

ثم كان من آثارها ظهور المراثى العربية والأشعار المنوهة بالبطولة والانتصارات الفاصلة ، وهى باب واسع فى تاريخ الحماسة القديمة لا يزال يجد

فيه المتأدبون شعاعاً مشيعاً للعاطفة الثائرة وقصصاً محبباً إلى النفوس النازعة إلى منازل الفخار والعزة كما نلاحظ أن الشعب العربى لم تتح له الحياة العلمية المنسقة التى تنشأ عن البحث والاستنباط ، وتخضع لقوانين منطقية وتجارب طبيعية ، وهذا يحتاج إلى عيش قارٍ ، وفكر هادىء ومنطق عريض ناجح ، لذلك كانت معارفهم معرضة للأخطاء والخرافات يتوارثونها ويوسعونها بما يتجدد لديهم ، وينقل لهم من سواهم .

هذا ، وقد كان فى الاجتماع العربى كثير من السوءات التى تُعد من أشدها دلالة على غلظ الأكباد وقسوة القلوب وَوأدِهِم البنات خشية العار ، ودفنهم أولادهم أحياءً خوفاً من الفقر وقد نعى ذلك عليهم القرآن الكريم ، وعَيّرَتهم به الأمم ، كما كانت عادة شرب الخمر ولعب الميسر فاشيةً فيهم إلى أن حرمهما الإسلام .